نظام تعليمي حدث ولا حرج

قمنا بثورة واحتفلنا بذكراها مرة تلو الأخرى، وما زال نظامنا التعليمي في مصر يغص بمشاكله التقليدية، شأنه شأن ما خلاه من أمور حياتنا، ولا أغادر الحقيقة حين أنزع عنه صفة النظام، فلقد ألمت به جوائح ألبسته ثوب التخلف والانحطاط. أما آن لنا التحلل من أدران تعليمنا العتيق؟! أما آن لنا أن نتسنم ركب التقدم والرقي؟!

ظللنا مهجوسين بامتحانات نصف العام وآخره حتى أوردنا ذلك ما نحن فيه، فقد كنا ننهل من العلم بنهم لا لشيء إلا لننساه ويذهب عنا جملة وتُطوى سنوات عمرنا بين أركان مؤسساتنا التعليمية بلا طائل. يخرج طالب العلم من مؤسساتنا كما دخل عريانا دون علم يستره إلا من رحم ربي، آية ذلك ما نراه من جهل وبطالة مردهما إلى مؤسستنا التعليمية السقيمة.

لقد انشغلنا بكل ما هو سياسي وتناسينا كل ما هو تعليمي، متوهمين أن انصلاح الأول يجر في ذيله انصلاح الثاني، لكن هذا هذاء وخلط للأوراق، لقد انقلبنا على النظام السياسي وأساليبه المرذولة ولم نلتفت إلى نظامنا التعليمي ولو من باب الشفقة على أجيالنا الضائعة. لو أخرج نظامنا التعليمي عقولا سليمة مستنيرة بالعلم، ولا أقصد العلم الدنيوي فحسب بل أقصد كذلك العلم الشرعي، لما كانت مصيبتنا الآن في الفتاوى السياسية والدينية التي تُطلق على عواهنها من حين لآخر وتجد مبتغاها في من يصدقها ويؤمن بها دون إعمال لعقل أو منطق. وغني عن البيان أننا لن نقي بلادنا شرور هذا الزمان ونحقق ما نرنو إليه إلا بمعلم لا يبخل بعلمه وبطالب يقدر هذا العلم، مع وجود ذلك الخيط الرفيع من الاحترام بين الاثنين.

لقد صمت آذاننا شعارات الارتقاء بالمعلم وتحسين آدائه، ناسين أو متناسين أن ذلك المعلم كان يوما جزءًا من القاعدة العريضة لمنظومتنا التعليمية وهي الطلاب، فكيف ينصلح الفرع دون الجذر وإن لم ينصلح الفرع فما فائدة الجذر؟! المعادلة بسيطة للغاية؛ إذا صلح المعلم سينصلح الطالب وإذا صلح الطالب سينصلح المعلم.

لقد تقزم دور المعلم في مدارسنا إلى أن صار المعلم يدخل الفصل من باب أكل العيش فحسب، وليس من باب إتمام رسالته، تلك الرسالة السامية التي أفل بريقها وتلاشى أثرها مع غياب المعلم القدوة الذي يغرس في أبنائنا بذرة علم وبذرة أخلاق تُسقيان من رحيق تلك الرسالة ليخرج لمجتمعنا من هم قادرون على حمل أثقاله وإصلاح هناته.

إذا كنا قد حملنا المعلم نصيبًا كبيرًا من المسؤولية تجاه تربية الأبناء وتعليمهم وصقل مواهبهم، فالجزء الأكبر من مسؤولية ذلك يقع أيضا على عاتق الآباء وأولياء الأمور. ولا يزال الآباء في بلادنا يعانون من متلازمة كُليتي الطب والهندسة، ذلك الداء العضال الذي تفشى بين الآباء وتسربت عدواه إلى الأبناء. تبدأ أعراض ذلك المرض في الظهور لدى الآباء عند مرحلة معينة من مراحل التعليم، عادة ما تكون الثانوية العامة وفي بعض الحالات المزمنة تكون المرحلة الإعدادية وأحيانا الابتدائية. لا ينفك الآباء عن توزيع ألقاب مثل

"الباشمهندس" أو "الدكتور" على أبنائهم على أمل أن يلتحقوا بإحدى كليتي الهندسة أو الطب، غير مبالين إن كان الأبناء يتمتعون بالموهبة والإرادة للالتحاق بإحداهما أو حتى يرغبون في ذلك.

تلك هي مسببات المشاكل التي تكدر صفو نظامنا التعليمي وتضعنا في مصاف الدول المتخلفة تعليميًا. وبالرغم من ذلك ليس علينا أن نهدم نظامنا التعليمي من أساسه ولكن علينا أن نبدأ بمعالجة مشكلاته واحدة تلو الأخرى. أليس منا رجل رشيد يستطيع توجيه أنظار مسؤولينا صوب تلك المسائل؟!

بقلم محمد تجريده